كونوا قديسين

« لذلك منطقوا أحقاء ذهنكم صاحين فألقوا رجاءكم بالتمام على النعمة التي يؤتى بها اليكم عند استعلان يسوع المسيح . كأولاد الطاعة لا تشاكلوا شهواتكم السابقة في جهالتكم بل نظير القدوس الذي دعاكم كونوا أنتم قديسين في كل سيرة لأنه مكتوب كونوا قديسين لأني أنا قدوس وإن كنتم تدعون أبا الذي يحكم بغير محاباة حسب عمل كل واحد فسيروا زمان غربكم بخوف »

(١بط١:١٣ – ١٧)

Frederick Brotherton Meyer (8 April 1847 – 28 March 1929)

إن كلمة « لذلك »، التي يستهل بها الرسول كلامه في هذه الأعداد تجمع ما سبق أن قدمه في الأعداد السابقة من مقدمات ، وتبني منها منبراً شامخ البناء يوجه الرسول من عليه الكلمات التابعة ، فلأن خلاصنا ، ورجاءنا ، و يسوع المسيح ربنا ، كانت كلها موضوع اهتمام الأنبياء و الرسل والملائكة والقديسين انذاك .

رجاء دعوة الله هو القداسة :

« كونوا أنتم أيضا قديسين في كل سيرة » . في كل صفحة من صفحات الكتاب المقدس أسمع صرخة مدوية تنادى بالقداسة ، والقداسة هي الفكرة الأساسية التي يدور حولها سفر اللاويين الذي استعيرت منه هذه العبارة ، كما أنها غاية العهد الجديد العليا . وفي حقيقة الأمر أن برنامج الفداء العجيب كله من أول الاختيار المدون في سجلات الأبدية إلى حلول الروح القدس يوم الخمسين له نفس هذا الغرض : نحن الذين كنا موضوع نعمة الله المثلث الأقانيم نشبهه في القداسة ، و تلك هي أنشودة السماء التي سمعها إشعياء في الهيكل سنة وفاة عزيا الملك ، والتي ظل يتردد صداها إلى أن سمعها يوحنا الحبيب في إحدى جزر بحر إيجة حيث كان في منفاه ، والتي ستظل تتردد إلى الأبد « قدوس قدوس قدوس الرب الإله القادر » (إش ٦:٣، رؤ٤: ٨).

وواضح أنه في إمكاننا نوال هذه القداسة ، فالإله القدوس قد دعانا إليها (ع ١٠) ، كما أن « الله لم يدعنا للنجاسة بل في القداسة » (١ تس ٤: ٧) ، كما أنه « دعانا دعوة مقدسة » (٢ تى ١:٩)،

وأيضا كل شركاء الدعوة السماوية هم « أخوة قديسون » (عب ٣:١). لكن الله لا يدعونا لنصعد مرتفعات لا يمكن ارتقاؤها ، ولا إلى أعمال نعجز عن أدائها ، فدعوته تتضمن حقيقتين : أن قداسته في متناول أيدينا ، ثم أنه على أتم اســـتعداد أن يمدنا بكل ما نحتاج إليه ليحقق فينا ما يدعونا إليه . نعم، لقد تعهد الله أن يجعلنا قديسين ، ولابد أن يتمم ذلك وإلا تشامخ أعداؤه . لقد عمل حساب النفقة قبل أن يقدم هذه الدعوة ، وهو قادر أن ينفذ العمل الذي وضع أساساته العميقة في الجلجثة (لو ١٤: ٢٩، ٣٠).

إن هذه القداســة ليســت وقفا على الرســل و القديســين، و ليســت لأجل أيام معينة مجيدة تمر بحياة الكثيرين - أيام أعياد وترنيم وتجلى - كلا ، فالقصــد الإلهي يهدف إلى شــيء أوسـع : « قديسـين في كل سـيرة » (ع ١٥). وقد تنبأ زكريا عن الأيام التي فيها « يكتب مُقدَّس للرب » على كل شــيء ، حتى على أجراس الخيل ، فيتردد نغم القداسة الجميل في كل أجزاء الحياة (زك ١٤: ٢٠، ٢١).

توجد طريق واحدة بها نصــبح قديسـين الله: أن نفتح كياننا الداخلي لحضــور القدوس ، ولا يسـتطيع أحد منا أن يكتسب قداسة بمنأى عن الله لأن القداسة تسكن في الله وحده ، وبقدر ما تمتلك النفس من الله ، بل بالأحرى بقدر ما يملك الله في النفس ، بقدر ما يكون لها من القداســة . القداســة لا تورث، ولا يمكن امتلاكها بمنأى عن الملء الإلهي أكثر من أن يســـتطيع النهر أن يتدفق بعد انقطاعه عن النبع . ونحن نصــبح قديسـين بالمقياس الذي به يمتلكنا الله ، وأقل الناس قداســة هو الذي لا يهب الله إلا أقل حيز ممكن ولا يدع الله يتحرك في داخله إلا في أقل الحدود فيفصــل بينه و بين الحياة اليومية بحجب كثيفة من الإهمال وعدم الإيمان . ومن يريد القداسة الذي يحرص أكثر على أن ينكر الذات، والذي يسعى لطلب المزيد من سكني الله بداخله ، ومن يبتغي أكثر منهما هو ذاك الذي يخضــع ذاته بالتمام لذلك الروح الذي يشتاق أن يجعلنا إلى أبعد الحدود شركاء الطبيعة الإلهية ، فيكون هو المالك والموجه والمحرك.

كيف تصــبح أكثر قداســة ؟ لا يوجد إلا سـبيل واحد ، فيجب أن يحتل الله مكانا أكبر في حياتك ، لأن القداســة هي جمال رب الجنود ، ولا يمكن فصــل القداســة عن الله . ولكي تتمتع بالقداســة ينبغي أن يملك الله أولا ، وليس من العســير أن تمتلك كليهما لأن هذه رغبته أن يملا كيانك ، وليســت رغبتك سوى استجابة باهتة من قلبك لدعوته.

كما أن القوة التي تعمل فينا هي نظير النعمة القادرة أن تفعل لنا أكثر جداً مما نطلب أو نفتكر ، ولم يوجد قط إنسان قد أشتاق إلى الله أكثر من اشتياق الله إلى الإنسان . وقد ظهرت قداسة الله في صورة بشرية في شخص يسوع المسيح ربنا ، ولذلك فهي قادرة ، كما هي راغبة ، أن تملأ حياة البشر عن طريق ذلك الروح المبارك الذي هو الوسـيط والمجرى الذي به نمتلىء إلى كل ملء الله ، اطلب من الله أن يملأك بروحه ، وهو يشــتاق أن يعطيه لنا أكثر من رغبة أي أب أرضـــى أن يعطى الطعام لإبنه الجائع ، وأنت متي طلبت ثق بأنك أخذت و « أذهب بقوتك هذه » (قض ٦: ١٤).

على أن هذه القداسة تعلن عن ذاتها بطرق مختلفة

١- هيئة السائح وسلوكه :

من عادات الشرقيين أن ينطقوا أحقاءهم ، وإن كانت الثياب الفضفاضة تناسب المناخ الشرقي لكنها تعوق السائح والمحارب . وعندما كان الشعب في القديم يستعدون للرحيل وقفوا حول خروف الفصح وأحقاؤهم ممنطقة ، وهكذا فعل نبي الله إيليا إذ شد حقويه وركض أمام مركبة أخاب من الكرمل إلى يزرعيل (١مل ١٨:٤٩)

إن نفوسنا تكتسي بثياب فضفاضة من رغبات و ميول و عواطف و شهوات تعرقل مسير نا بسبب اشتباكها بالأمور العالمية ، إنها تعطلنا عن الركض في ميدان السباق المسيحي ، فلا يجب أن نعطيها فرصة وإلا تعرضنا للخطر ، وكم تأسف أبشالوم في اليوم الذي فيه تعلقت خصل شعره المسترسل بأغصان البطمة العظيمة الملتفة ! . ونحن ينبغي علينا أن نمنطق عاداتنا ، ونشذب أنفسنا ، لكي نمرق بسرعة وسهولة خلال غابة العالم الشائكة.

لاحظ نفسك في قبضة اليد ، ولجم شهواتك ، وقلل من الإنفاق على نفسك ، ولا تسمح لذاتك أن تحيا في بحبوحة من العيش ، لكن راقب النظر ، والشفاه ، والفكر ، و الرغبات ، لئلا تفلت إحداها من الزمام ، « وفوق الكل تحفظ إحفظ قلبك » . و بينما تعبر في «سوق الأباطيل » اعبر سريعاً حتى لا يراك أحد .

صاحين : الصحو كلمة عظيمة ، ويأتي ذكرها كثيرا في العهد الجديد كصفة يجب أن تتوفر في الشيوخ ، والشمامسة ، والعجائز ، والشباب ، والعذارى . إنها تعني ضبط النفس ، وأن يقدر المرء ذاته تقديرا عادلا . يوجد البعض يزيفون هذه الصفة باتخاذ مظاهر الصرامة والتجهم ونبذ أشياء بريئة وطبيعية والنظر يغضب إلى كل من لا يخضع لمعتقداتهم ، لكن الإنسان الصاحي بحق يتحرك بحرية في العالم ، ويعتبر كل شيء طاهراً ، و يبتهج بكل عطايا الله الصالحة ، لكنه لا يدع قط أيا منها يستحوذ على عواطفه و يسيطر على إرادته.

وحين يكون القلب منشغلا بالرب و بخدمته ومحبته و مجازانه و بالترحيب الذي سيلقاه في النهاية ، فإنه يستطيع أن يسير وسط العالم دون أن تجتذبه مناظره أو تؤثر فيه مغرياته . إن القلب المقدس الممتلىء إلى حافته بحضور الله إنما يشبه إنسانا قد شبع من وليمة دسمة فيعاف النظر إلى خرنوب الخنازير.

رجاء إلى النهاية : « فألقوا رجاءكم بالتمام » ، تقدموا بلا خوف بقدر ما يقودكم الرجاء . إن « النعمة التي يؤتى بها إلينا » بعد أن تتمزق السحب التي تخفي عنا الرب يسوع و عندما يظهر من السماء فإن النعمة ستفوق كل تصوراتنا . الرجاء هو شعلة النفس التي يحملها قديس إلى قديس كما في الألعاب الإغريقية ، لكنها ستخمد عما قريب أمام النور الذي سينفجر في يوم الفداء الكامل و الخليقة الممجدة.

٢- طاعة الأبناء :

وما كنا أبناء المعصـــية ، لكن بعد أن نلنا الميلاد الثاني صـــرنا أولاد الطاعة ! . فيالها من أم ، وما أكرمه نســـل ، ويالله من اختلاف عجيب طرأ على حياة أولئك الذين تغيرت حياتهم ولم يشـــاكلوا شـهواتهم السـابقة و حين كنا تحت سـلطان الخطية ، قبل أن تنير نا نعمة الله ، كانت هذه الشـهوات تشكلنا و تصيغنا في قالبها ، ولجهلاً بالخطية وما تخلفة من أهوال استسلمنا لها كما ليد مولي قاس ، و إذ أدركتنا نعمة الله و أصبحنا لا نعود نستعبد للخطية أو نشاكل شهواتها بل نخضع لإرادة الله فهذه هي الطاعة . وفي كل مرة نطيع صـــوت الله تجعلنا نكتســب طبيعة الله في طبيعتنا : « إن ســمعتم لصوتي وحفظتم عهدى تكونون لي خاصة . وأمة مقدسة » لكن ما أقل المؤمنين الذين يدركون أن الطاعة لإرادة المسـيح في كل الأمور - حتى في أتفهها - هي الشـرط الذي لا غنى عنه لحياة الفرح والقوة ، وأن النفس الطائعة هي النفس المقدسة التي تمتلىء بحضور الله وتشع بالنور و المحبة.

أيها القارىء العزيز ضـــع في نفســك من هذه اللحظة أن تعيش في النور الذي وصـــلك ، وليكن هذا شـــعارك . « كل ما تكلم به الرب نفعل ». لم يكن الشـــعب ينطق بهذه الكلمات حتى ســقط ســقوط عظيماً مخجلاً ، لكن هل تقولها أنت في قوة الروح القدس الذي به تستطيع كل شيء في المسيح ؟. !

الخضوع بهيبة لأحكام الآب

إن أولاد الله ســيحاكمون ليس أمام العرش الأبيض العظيم بل أمام كرســـي المســيح (٢كو ٥:١٠) ، وهذا لا يختص بمصيرنا الأبدي ، لأن هذا أمر قد سبق الفصل فيه ، لكن لأجل المكافأة والجزاء إن كنا قد سلكنا أمامه بالأمانة أو بخلاف ذلك (١كو ٣:١٤؛ مت ٢٥:٩).

لكنه حكم الآب : إذنا ندعوه أبانا ، لقد دعانا ، ونحن ندعوه ، ودعوته إيانا أبناء هي التي جعلتنا ندعوه أبانا . وليس ما يخيفنا من نظرته ، لأنها إنما تحمل رقة و لطفا . إنه يترفق بنا لأنه يعرف جبلتنا ، متغاضيا عن ضعفاتها بصبر وطول أناة

وهو حكم « بغير محاباة » لقد أعلنت هذه الحقيقة للرســول قبل ذلك بســنين عديدة في رؤيا بقيت ماثلة في مخيلته ، وقد أثرت وغيرت مجرى خدمته (أع ١٠ : ٣٥). فليس ما لك من مركز ، أو مظهر ، أو اعتبار ، إنما على أعمالك يحاكمك الله.

هذا ما تعرفه النفس التي تقدســت فيجعلها تنظر إلى هذه الحقيقة برهبة عظيمة ، وهذه الرهبة ليســت ناتجة عن الخوف الذي له عذاب ، بل بدافع المحبة . فتسـير زمان غربتها بخوف ، ليس الخوف من نتائج الخطية ، لكن الخوف من إحزان الأب ومن احتجاب وجهه ، أو من أن يفوتها شـــيء من إعلانات محبته و الاقتراب منه ، الأمور التي هي من نصـــيب الإبن المطيع . ولأن كانت المحبة تطرد الخوف إلى خارج لكنها أيضا تبعثه ، فليس ما يريع أو يزعج أو يقلق لكنها حساسية الضمير المدرب الذي يخشى من وجود شيء يبسط سحابة على الروح فيحجب - ولو إلى حين - وجه الآب

المشـرق المضــيء . وهكذا تعبر سـريعا أيام غربتنا ، وتلوح لنا أرض الميعاد ، وتدفعنا رؤياها أن نسرع خطانا و نصلح طرقنا.

منقول من كتاب (امتحان الايمان) لسنة ١٩٧٠مع التعديل والتنسيق – الرب يستخدم هذا التأمل لمجد اسمه.